

(منهج التساؤل بين الغزاليين)

محمد يبرير

جامعة الجزائر -2-

ملخص:

تأتي هذه المحاولة البسيطة، من باب أن نقرأ هذه الظاهرة: ظاهرة البحث والتساؤل قراءة معرفية إسلامية بصورة عامة، وأن نقرأ هذا المنهج على يد الشيخ محمد الغزالي، وعلى يد الإمام أبي حامد الغزالي، وأن نستبين سر هذا الاهتمام بمسألة التساؤل، وأن نتساءل عن ما وراء هذه الفلسفة الداعية إلى البحث والسؤال.

كلمات مفتاحية: منهج التساؤل، الغزالي، فلسفة التساؤل، التعلم

Abstract:

This simple attempt comes for the reading of this phenomenon: the phenomenon of research and questioning Islamic reading in general, and to read this approach by -Sheikh Mohammed al-Ghazali-, and by -Imam Abu Hamid al-Ghazali-, and to show the secret of this interest question, and to ask what Behind this philosophy calling for research and question.

Keywords: Methodology of questioning, Ghazali, philosophy of questioning, learning

مقدمة:

عندما نبتغي أن نؤسس لمذهب متين، ينبغي أن نشجع المتعلمين على التدريب على الملاحظة في المنهج العلمي، أو المنهج التجريبي... وعندما نبتغي بناء منهج أمتن في العلوم الإنسانية أو الاجتماعية، فإنه ينبغي أن نشجع المتعلمين والدارسين على التفكير الحر والمرن، وأن نشجع المتعلمين بصورة أخص على منهج التساؤل ... هذا المنهج الحر الذي يدفع الطفل أو الإنسان إلى التأمل والملاحظة في الظواهر المحيطة به. ولا ينبغي عليه أن يقف عند حدود الملاحظة العابرة، بل يجب أن يمرن: وأن ينال حضا وافرا وكاملا وعاليا من الدربة على التساؤل، وبناء الأسئلة الهادفة المنظمة، وعليه نطرح مايلي:

- كيف نظر الغزاليان إلى السؤال والتساؤل؟

- ما المنهج المؤدى إلى البحث والتساؤل؟

1. إذا استقصينا الماضي، وإذا استقصينا التاريخ، وإذا رجعنا إلى آثارنا الإسلامية، نجدها تتضمن قدرا محترما ولفترات كثيرة من التوجيهات الربانية، ومن السنن النبوية الكريمة التي توسع القول في باب التساؤل، وفي باب التأمل وإعمال البصر والبصيرة...

من هذا الفيض، هذه الآية الكريمة التي تحدد ثلاثة معطيات للنقاش الجاد :

العلم والمنهج والكتاب المسطور ... يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

وَلَا كُتِبَ مُنِيرٌ ﴿٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى

(القرآن الكريم: سورة الحج. الآية 08) وكذلك (القرآن الكريم: سورة لقمان. الآية:20)

استهللنا هذا الموضوع المرتبط بالمنهج بهذه الآية الكريمة المستوحاة من الوحي الكريم، ويفهم ويستدل من هذا النص السماوي الكريم أن الجدل أو الحوار أو التواصل يقتضي التعرّيج على ثلاثة معالم أو محطات تربوية كبرى:

1. العلم: المعرفة المنظمة الواضحة القسّمات التي تجمع بين البحث والتجرد والحقيقة

"والعلم هو البحث المنهجي والموضوعي عن المعرفة الممكن التحقق منها"

(فاخر، عاقل. 1979. ص 101)

2. الهدى: ويقصد بالكلمة: "المنهج والسيرة والطريقة والنهارو الرشاد والبيان الرائع". (علي، بن هادية. الجيلاني، بن الحاج يحيى. بلحسن، البليش: 1991. ص 1278)

"ويقصد بالهدى الدلالة على الطريق الصحيح أو الصراط المستقيم".

(صبيحي، حموي. أنطوان، نعمة. عصمان، مدور، لويس، عجيل. ميري، شماس: 2001. ص 1477)

3. الكتاب المنير: ويقصد به. بلغة الخصوص. الوحي والقرآن الكريم وبلغة العموم الكتاب ووسائل المعرفة والبحث العلمي. ويفهم من سياق الآية أن معالم المعرفة تشبه المثلث الذي يمتاز بثلاثة أبعاد: بحيث إذا نقص ضلع اختلت صورة المثلث... وهذه الأبعاد متماسكة: فلا يعقل أن يقوم العلم دون معطيات أو ضوابط منهجية، ولا يعقل أن يقوم العلم دون كتاب و تأليف و تحرير و قلم.

ولا يعقل أن تقوم مناظرة أو مجادلة أو مناقشة أو أخذ ورد دون هذه الثلاثة ودون أسئلة ومباحث ودون تحديد وضبط للإشكالية قيد البحث والدراسة.

ثم إن الدارس للفلسفة، وهي أم العلوم يدرك بالبداهة والتمرس أن فعل التفلسف لا يتم دون تساؤل... وأن قيمة الفلسفة تتجلى في قيمة الأسئلة التي تطرحها أكثر من الإجابات والحقائق التي تصل إليها... ومن ذلك أن الباحث أو المربي يطرح. أثناء معالجة الموضوع.

سلسلة من أسئلة المفتاح ليصل إلى كنه الموضوع: ما هو رأس الفكرة؟ ما هي الأسئلة الفاتحة للموضوع؟ ما هي المراجع التي أعود إليها؟ ما هي المدة الزمنية الكافية لإنجاز هذا المشروع؟ ما هي الكلمات والمصطلحات التي يجب أن أتفاعل معها؟ ...لهذا نجد أن البحث يركز على المنهجية: "لأنها هي قوة العلماء في أي مبدأ يشتغلون به، فالإنسان العادي يتمتع بما يكتشف وتهمة النتيجة. أما الباحث فيهتم بعاملين:

أ. النتيجة التي توصل إليها.

ب. الطريقة التي اتبعها للوصول إلى النتيجة". (تيسير مفلح، الكوافحة: 2004. ص 98)

2. منهج التساؤل جوهره أن نسأل، وأن نتعلم فن السؤال

يقول الحكيم العربي أكثر من صيفي: "كل سؤال وإن قل، أكثر من كل نوال وإن جل"

كما أن مادة "سأل" و "السؤال" في المباحث اللغوية والمعجمية لا تخرج عن دلالات البحث والطلب. (علي، بن هادية. الجيلاني، بن الحاج يحيى. بلحسن، البليش: 1991. ص 448)

(صبيحي، حموي. أنطوان، نعمة. عصمان، مدور، لويس، عجيل. ميري، شماس: 2001. ص 640)

بالإضافة إلى أن الحروف الثلاثة في الفعل المزيد: (الألف، والسين، والتاء) تدل على الطلب والبحث. من ذلك: استشارة، استفسار، استقصاء، استبانة، استفتاء...

ضف إلى ذلك أن مادة المسألة في التصور الفلسفي هي: "القضية التي خفي وجه قبولها

أورفضها ويؤمل الوقوف عليها بالبحث والتساؤل" (محمود، يعقوبي. 1979. ص 95)

وإذا رجعنا إلى اللغات الأجنبية، نجد أن كلمة question في اللغة اللاتينية القديمة تعني أمرين:

أ. البحث والنظر ب. مسألة مطروحة للنقاش

(Robert Laffon: 1999p884) (Larousse: 1983 p 760)

لقد جاءت هذه المحاولة من باب أن ننبه إلى مسألة خطيرة في نظر الغزاليين، وهي بالتحديد، وجوب أن نزرع ثقافة السؤال، والإلحاح في السؤال في نفوس الدارسين والباحثين: ذلك أن السؤال يثمر العلم، ويفتح آفاق العقل البشري، والسؤال يفتح الظاهرة قيد الدراسة ويجعلها سهلة المنال، ويخفف من تشعب الدراسة، ويحدد وجهة النظر والبحث... خذ مثالا على ذلك ظاهرة التدخين: لماذا ندخن؟ هل التدخين يحل مشاكلنا؟ هل التدخين متعة أم استنفاد للصحة والمال؟ هل التدخين يؤدي إلى القلق أو يخفف من حدته؟ ما هو البديل؟

وفي هذا المنهج ،منهج التساؤل يفتح الباب على مصراعيه على المعرفة...والمثال على ذلك "نيوتن" وهو الواحد والوحيد الذي تساءل عن سر سقوط التفاحة ... وقد لاحظ آلاف الناس .من قبل . الثمار وهي ترتد نحو الأرض ،والثمار وهي تسقط و تتطايح .

ولم يكلف أحد نفسه عناء السؤال والبحث...ثم إن البحث العلمي والدراسة المنظمة لا تنطلق ولا تقوم لها قائمة إلا من خلال الضبط المحكم لإشكالية الدراسة...ولا نصل إلى هذا الضبط إلا بطرح سلسلة من الأسئلة الرئيسة الهادفة التي توضح معالم مشروع الدراسة ،ومعالم البحث ،ذلك أن الإشكالية ما هي في حقيقة الأمر سوى فن طرح الأسئلة .

3. لهذا لا نستغرب إذا وجدنا القرآن الكريم يحثنا على العلم والسؤال، ويدعونا عبر سوره وآيه إلى البحث وإعمال النظر، ويدعو إلى التساؤل. ويكفينا استعراض بعض النصوص الكريمة الشاهدة، من بينها :

"يسألونك عن الأهلة" (القرآن الكريم - سورة البقرة: 188)

"يسألونك ماذا ينفقون" (القرآن الكريم - سورة البقرة: 213)

يسألونك عن الشهر الحرام" (القرآن الكريم - سورة البقرة: 215)

"يسألونك عن الخمر" (القرآن الكريم - سورة البقرة: 217)

"يسألونك عن الساعة" (القرآن الكريم - سورة الأعراف: 187)

"يسألونك عن الأنفال" ⁹ (القرآن الكريم - سورة الأنفال: 01)

"يسألونك عن الروح" (القرآن الكريم - سورة الإسراء: 85)

"يسألونك عن الساعة" (القرآن الكريم - سورة النازعات: 41)

ولم تكتف النصوص القرآنية الكريمة بالدعوة إلى البحث والاستقصاء والتساؤل، بل دعت إلى وجوب الاحتكام والرجوع إلى ذوى الخبرة والتخصص للاستئارة بأرائهم في القضايا الجنائية والمتاعب الصحية والتحقيقات الإدارية والتربوية.

و الأمر نفسه بالنسبة للدراسات الأكاديمية المتخصصة، حيث لجأت الجامعات إلى الاستعانة بهيئة التدريس ولجان القراءة للإشراف على المذكرات والرسائل الجامعية والأطروحات،

من هذه النصوص:

"فاسألوا أهل الذكر..." (القرآن الكريم - سورة النحل: 43)

"فاسأل به خبيراً" (القرآن الكريم - سورة الفرقان: 59)

ولهذا لا نستغرب إذا وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يحثنا على العلم والسؤال قائلاً:

"العلم خزان مفاتيحها السؤال، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والعالم المستمع والمحِب لهم" - رواه أبو نعيم

يستفاد من هذه النصوص الجميلة المقدمة، أن السؤال فلسفة ساعية نحو تقدم المعرفة الإنسانية، وإلى تنظيم الفكر، ومن خلاله إلى تنظيم العمل وتنظيم التأملات، وإعادة التبصر و النظر في المسائل العالقة ، وهذا الأمر ليس بعيدا من رأي الفيلسوف أفلاطون القائل:

"إن الجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب" (جميل صليبا: 1979 . ص 391)

4. والجدل هو موقف الفكر الدارس الذي يقرر أن حكمه على الأشياء لا يمكن أن يكون نهائيا، وأن هناك بابا مفتوحا لإعادة النظر (جميل صليبا: 1979 . ص 394)

وإذا عدنا إلى تاريخ التربية ، نجد إشارات ولطائف ولمع تشير إلى هذه الذخائر والنفائس التي تتحدث عن قيمة السؤال، وقيمة التساؤل نسرد من بينها :

يقول الفيلسوف سقراط : "إن الحياة دون تساؤل حياة جديرة بالنسيان ، لذا أصبح واجبا على كل من يسعى إلى الارتقاء بالحياة أن ينمي قدراته على توجيه الأسئلة" (جمال الدين لعويسات: 2003 - ص 3)

...ثم إننا نستلهم من القرآن الكريم آداب الحوار وطبيعة المناظرات التربوية في كثير من المواقف التربوية من ذلك المناظرة القائمة بين سيدنا موسى وقومه (القرآن الكريم - سورة البقرة: الآيات من 66 إلى 71)

والمناظرة الثانية بين سيدنا موسى وسيدنا الخضر (القرآن الكريم - سورة الكهف: الآيات من 63 إلى 81) وكذلك الحوار الجميل بين الله عز وجل وبين النبي صلى الله عليه وسلم في قضية السائل الضير ، (القرآن الكريم - سورة عبس: الآيات من 1 إلى 11) وكلها مواقف تربوية إنسانية تحتاج... تحتاج إلى وقفة هادئة، وإلى التدبر، وتحتاج إلى الدراسة والتأمل..

كما دأبت العادة ،أننا نستشف ملامح شخصية الفرد من خلال أمرين اثنين لا ثالث لهما: الأمر الأول هو: لغة الإنسان ،وحديثه ،وتماسك أفكاره، وقوة حججه

والأمر الثاني هو الأسئلة التي يطرحها، ومدى جاهتها، ومدى فائدها وقد كان الأوائل والأواخر يحرصون الحرص كله على أن يطبعوا أنفسهم بطابع التدبر والتأمل والبحث والتساؤل... ومن الكلمات التي سطرها العلامة أبو حامد الغزالي بقلمه:

"... ولم أزل في عنفوان شبابي ،منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق و أتوغل في كل مظلمة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة... لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته،

ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ،ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا ، إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ،ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معللا إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديديني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلي ولا باختياري وحيلتي."

(أبو حامد الغزالي : 2003 ، ص 28)

ويستدل من هذا النص العريض أن الإمام الغزالي كان من أهل الصمت والسؤال، وكان من أتباع منهج الشك والشكاك في رحلة الكشف عن العلم واليقين...

5. وهذا شبيه بصورة الشك المنهجي لدى "ديكارت" الذي يدعو إلى التحرر من الأفكار السابقة، وأن ينتقد العالم عمله وعلمه، وأن لا يقبل أمراً على أنه حق إلا إذا عرف أنه كذلك ببداهة العقل (جميل صليبا: 1979. ص 706) و (راشد المبارك : 2011 . ص 77)

وهذا المنهج ، شبيه بمنهج إمام الدعوة في القرن العشرين الشيخ محمد الغزالي كما يصفه الشيخ عمار طالبي بقوله :
"هناك سمة أخرى لمحتها في أحاديث الشيخ محمد الغزالي وكتاباته ، وهي أنه يتساءل . دائما . ويلاحظ ويتأمل . فهو يمتاز بدقة الملاحظة في الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية " (المعهد العالي للفكر الإسلامي : العدد السابع -1997 . ص 58)

وقد آمن الشيخ بأن العلم أخذ ورد، أدب ومناقشة ...يقول في هذا الباب :

"وإنني أعترف بأنني واحد من التلامذة الذين جلسوا إلى حسن البناء وانتصحو بأدبه، واستقاموا بتوجيهه، واستفادوا من يقظاته ولمحاته، ولكني . وهذه طبيعتي . كنت أخذ وأدع، وأتبعه وأجادله...ويرى مني الرضا والنقد " (محمد الغزالي : دون تاريخ ج . ص 11)

ويقول أيضا:

"ما ورثت الدين عن والدي ، كما ورثت قصر القامة والبياض والبشرة، بل قد مرت علي أيام، فرغت فيها نفسي من كل اعتقاد، وتركت لعقلي أن يوازن ويختار...بفضل معرفة اللغة العربية ، والدراسة للفكر الإسلامي والإسلام " (محمد الغزالي : 2005. ح ص 14)

ويستدل من هذه النصوص الجميلة الشاهدة أن مفاتيح العلم مرتبطة بقواعد موضوعية ومنهجية ، من بينها :القلب العقول،والعقل السؤول،والمنطق المنظم الهادئ ،والمناقشة الهادفة،والفكر المتحرر،والتحرك ببطء وحذر وتأن وتحقيق التقدم ببطء أسلم من الوقوع في الخطأ (راشد المبارك : 2011 . ص 76)

وقد جاء في تاريخ التربية ما يصب في باب التساؤل، من ذلك:

جاء في حكم إخوان الصفاء:

"واعلم، يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن طالب العلم يحتاج إلى سبع خصال: أولها السؤال والصمت، ثم الاستماع، ثم التفكير، ثم العمل به، ثم صدق من نفسه، ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله ثم ترك الإعجاب بما يحسنه" (يوحنا قمير: 1982 - ص 85)

وجاء في المأثور: "أربعة لا يأنف الشريف منهن وإن كان أميرا: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لعالم يتعلم منه، والسؤال عن ما لا يعلم، وخدمته للضيف" (ابن جماعة: 1986، ص 36)

ويقول الشيخ محمد الغزالي: "إن الطريق الوحيد المحترم: هو طريق العقل المفتوح والمنطق السليم والجدال الحسن" (محمد الغزالي (خ): 2005، ص 3)

6. يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن هذا العلم خزان، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه" (محمد الغزالي: 2005، ص 3) ونخلص من هذه الشواهد إلى أن ثقافة السؤال أصل متجذر في العمل التربوي والمدرسي.

وخير ما نختم به هذه النفحات الروحانية الطيبة، هذه التوصيات، وهذه التوجيهات التربوية التي ترتبط بالمعرفة بصورة أعم، وبالتربية بصورة أخص:

1. بناء خريطة ذهنية للمراجعة والدراسة

2. الخروج من دائرة الأسئلة المغلقة التي ترتبط بنشاط واحد، أو مادة واحدة، "مثل الرياضيات" إلى الأسئلة المفتوحة التي تمس مجموعة من الأنشطة، وخاصة في التعليم الابتدائي، وذلك من باب فقه الكفاءات، ومن باب المنهج المحوري. ومن باب الإدماج

3. نستخلص أن ما أنتجه العقل البشري مرجعه إلى القراءة والبحث والتساؤل.

4. الاستفادة من الخطوات التي مر بها الشيخ أبي حامد الغزالي: من حيرة وشك ومراجعة ومكابدة للوصول إلى الحقيقة.

5. الاستفادة من حكمة الشيخ محمد الغزالي القائلة:

"إن التعطش إلى المعرفة وحق العقل في طلب الحقيقة هو الطريق نحو اليقين والإيمان... وهذا ما يجعل العقل يبحث ويتساءل، ويبحث عن الحقيقة ويكتشف الشبه المحيطة بها، ويخلص جوهرها من كل شائبة تعلق بها" (محمد الغزالي، 1986، ص 23)

6. الاستفادة من تحديد أبعاد الإشكالية (السؤال. التاريخ. الزمان)، حيث أوضح ألبرت اينشتاين في كتابه تطور الفيزياء أن صياغة وتحديد المشكلة غالبا ما تكون هي النقطة الأساسية والرئيسية في حل المشكلة (جمال الدين، لعويسات: 2003، ص 5)

7. يضاف إلى هذا، أن المراجعة المتكررة، والمرتبطة بطرح أسئلة ناضجة، سر من أسرار النجاح والتألق.

فالسؤال في موقعه، والإدراك الصحيح للعلاقات بين الظواهر، وتوعية الحقيقة من الزوائد، هو السبيل الأول والأخير إلى المعرفة الحقة والصحيحة، وهو الطريق إلى اليقين

وفي الختام، نرى بأن الغزاليين نهما تنبها بالغاً إلى أن التربية والمعرفة ترتبطان أشد الارتباط بالبحث والتساؤل

المصادر والمراجع:

1 القرآن الكريم

2. إبراهيم عبد الرحيم، ابن جماعة (1986): المذهب التربوي عند ابن جماعة - تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم - تحقيق وتحليل: عبد الأمير شمس الدين - بيروت. دار اقرأ - الطبعة الثانية
3. علي الحمادي (1999): شرارة الإبداع - بيروت. دار ابن حزم - الطبعة الأولى
- 4- أبو حامد الغزالي (2003): المنقذ من الضلال - بيروت. المكتبة العصرية - الطبعة الأولى
- 5- أبو حامد الغزالي (2005): إحياء علوم الدين - المراجعة والضبط للشيخ القاضي محمد دالي بلطة - بيروت. المكتبة العصرية - دط
6. محمد الغزالي: (2004): الإسلام والاستبداد السياسي - الجزائر. دار المعرفة
7. محمد الغزالي (1986): ظلام من الغرب. باتنة (الجزائر). دار الشهاب
8. محمد الغزالي (1988): كفاح دين. الجزائر. دار رحاب
9. محمد الغزالي (2005): عقيدة المسلم - دمشق. دار القلم. (د ط)
10. محمد الغزالي (2005): - كيف نفهم الإسلام. دمشق. دار القلم. (ط 2)
11. محمد الغزالي (2005): مائة سؤال عن الإسلام - القاهرة. دار نهضة مصر. (د ط)
12. محمد الغزالي (1990): هموم داعية. الجزائر. شركة الشهاب
13. يوحنا قمير (1982): إخوان الصفا - من سلسلة فلاسفة العرب. بيروت. دار المشرق. (د ط)
14. راشد المبارك (2011): شموخ الفلسفة وتهافت الفلاسفة. بيروت. مؤسسة الانتشار العربي. (ط 01)

15. تيسير مفلح الكوافحة (2004): علم النفس التربوي وتطبيقه في مجال التربية الخاصة . عمان (الأردن) . دار المسيرة- (الطبعة: الأولى)

16. جمال الدين لعويسات (2003): الإدارة وعملية اتخاذ القرار. الجزائر. دار هومة

الموسوعات والمعاجم:

- 1 . علي بن هادية ،الجيلاني بن الحاج يحيى، بلحسن البليش (1991): القاموس الجديد للطلاب . الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب . الطبعة السابعة
2. صبيحي حموي، أنطوان نعمة، عصمان مدور، لويس عجيل، متري شماس (2001): المنجد في اللغة العربية المعاصرة . بيروت . دار المشرق الطبعة الثانية
3. جميل صليبا (1979): المعجم الفلسفي . بيروت. دار الكتاب اللبناني
4. فاخر عاقل (1979): معجم علم النفس . بيروت. دار العلم للملايين . الطبعة الثالثة
5. محمود يعقوبي (1979) : معجم الفلسفة . الجزائر. مكتبة الشركة الجزائرية